



تدبر القرآن الكريم
سوريا - دمشق - مسجد عبد الغني النابلسي



تفسير سورة البقرة شرح الآيات 38-46

nooraldeen.com

15/05/2026

سورة البقرة - 09: شرح الآيات 38-46

(002) سورة البقرة

2026-05-15

سورية - دمشق

مسجد عبد الغني النابلسي

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين.
اللهم علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علّمنا وزدنا علماً وعملاً مُتَقَبَّلاً يا رب العالمين.
وبعد أيّها الكرام: فهذا مجلسنا الثامن في تدبر سورة البقرة، ونحن مع الآية الثامنة والثلاثين من السورة وهي قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۚ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعَ هَٰذَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38)

(سورة البقرة)

معنى (اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا):

الهبوط يعني الانتقال من مكانٍ علويٍّ إلى مكانٍ أدنى منه، الجنّة مكانٌ علويٌّ والدنيا مكانٌ دنيّ، الجنّة طبيعتها أنها حياةٌ تكريمية، ففيها علوُّ الشأن والمنزلة والمكان والمكانة، والدنيا حياةٌ دُنيا، وهي أدنى بكثيرٍ من الحياة التكرّيمية، لأنها مكان الامتحان، ومكان الابتلاء، أنت عندما تذهب إلى الامتحان، تجلس على طاولةٍ ربما بسيطةٍ وكُرسيٍّ غير مريحٍ وتُمتحن، لكن عندما تأتي إلى مجلسٍ لثُكُومٍ فيه على إنجازك، فتوضع لك الأرائك وتُكْرَمُ فيه، فالهبوط هو انتقالٌ من الأعلى إلى الأدنى (اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا) أي نزلوا من المكان الذي كانوا فيه، مَنْ هُمْ جميعاً؟ جميعاً أي آدم وزوجه وإبليس اللعين، وقيل جميعاً أي آدم وزوجه وذريتهم والنقلان من الإنس والجن، لأنَّ آدم لقّا هبط من بعده كلنا هبطنا، لأننا ذرية آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام (فُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا).

الإنسان من غير منهجٍ يُفْسِدُ في الأرض:

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى) الهدى يا كرام هو الدلالة، فأنت تهدي الإنسان إذا دللته، فلما أصبحوا في الأرض صار لا بُدَّ من المنهج، لأنَّ الإنسان والجان بغير منهجٍ يُفْسِدُونَ في الأرض، وهذا سبب قول الملائكة في البداية:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۚ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30)

(سورة البقرة)

فالإِنسان إذا كان مُسَيِّراً، لو افترضنا جدلاً أنه مُسَيِّرٌ، سُبِّحَتهُ الله إلى ما يُحَقِّقُ مصالحه، فلن يُفْسِدُ في الأرض، فليس هناك انتهاكٌ لأعراض، ليس هناك قتلٌ، ليس هناك جريمةٌ، ليس هناك اعتداءٌ على أموال الناس، التزامٌ كامل، فلن يحصل فسادٌ في الأرض، والفساد من أين يأتي؟ من شخصٍ مُكَلَّفٍ يستطيع أن يفعل الخير أو الشرَّ، فيفعل الشرَّ فيحصل الفساد، هذا أصل الفساد في الأرض، فلمَّا صاروا في الأرض كان لا بُدَّ من المنهج، لأنَّ الإنسان من غير منهجٍ يُفْسِدُ في الأرض.

الهُدَى من الله وحده:

قال: (فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ) فأولاً قال: مَنِّي، إذاً الهُدَى من الله وحده، فلا ينبغي أن تأخذ منهجاً في الأرض من قوانين البشر، ولا ممَّا تواضع عليه البشر، يجب أن تأخذ الهُدَى من الله، (مَنِّي) الله تعالى هو الجهة الوحيدة التي تملك على أن تذكَّك على ما يُصلحك، فلا تلتفت إلى غيرها (مَنِّي).

ثم قال: (فَمَن تَبِعَ هُدَايَ) فأضاف الهداية إلى ذاته العليَّة تعظيماً لها، أنت عندما تقول: بيت فلان من عامة الناس، غير ما تقول: بيت المَلِك، فالمُضاف إليه يُعطي قيمةً للمُضاف، فأنت تقول: هدى الله فما أعظمه، قال: (هُدَايَ) تَسَبَّ الهُدَى إليه، وقال: (مَنِّي) إذاً هو ربِّي المصدِر وهو عظيمٌ لأنَّ هُدَى المولى جلَّ جلاله.

(فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).

وفي آيةٍ أخرى قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۚ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَصِلُ إِلَىٰ يَتْسَفَىٰ (123)

(سورة طه)

مَتَّبِعِ الهُدَى يَتَمَتَّعَ بأربع صفات:

فصار مُتَّبِعِ الهُدَى مُتَمَتِّعاً بأربع صفات: لا خوفٌ، لا حزنٌ، لا ضلالٌ، لا شقاء، هذا مُتَّبِعِ الهُدَى، الخوف يكون من مكروهٍ سيَّأتِي، والحزن يكون من مكروهٍ مضى، فأنت تحزن لماذا؟ يقول لك: والله صار معي مُشكلة، فأنت تحزن على ما فاتك، والخوف يكون مما هو آتٍ، فَمَن يَتَّبِعِ هُدَى الله، لا يحزن على ما فات ولا يخاف ممَّا هو آتٍ، استغرق الزمن كله، المؤمن إن أصابه سراءٌ شَكَرَ وإن أصابته ضراءٌ صَبَرَ.

{ عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَهُ مَا يَحِبُّ حَمْدُ اللَّهِ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ

كُلُّهُ خَيْرٌ إِلَّا الْمُؤْمِنُ }

(أخرجه مسلم وأحمد)

(فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) من المُستقبل (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) على الماضي الذي فاتهم، فماداً بقي من السعادة؟

ثم قال في آيةٍ أخرى: (فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَصِلُ إِلَىٰ يَتْسَفَىٰ) ماذا يُقابل الضلال والشقاء؟ السعادة، إن لم يكن هناك ضلالٌ ولا شقاء فهناك سعادة، أي هُدًى وسعادة، فصار المُتَّبِعِ الهُدَى الله عزَّ وجل لا يحزن على ما فات، ولا يخشى ممَّا هو آتٍ، ولا يضلُّ الطريق، ولا يشقى في دنياه ولا في آخره، فماداً بقي من سعادة الدنيا والآخرة؟ (فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).

ثم قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39)

(سورة البقرة)

لَمَّا يَقُولُ رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ: (أَصْحَابُ النَّارِ) فهذا لطول مُلازمتهم لها، فالإنسان إذا أتى إلى مكان ودخله وخرج ما يُقال هو صاحبه، يعني أنت ذهبت إلى دُكَّانٍ واشتريت منها وخرجت، لم تُصبح صاحب الدُكَّانِ، لكن بيتك لكثرة ملازمتك له يقال له: صاحب الدار، لكثرة المُلازمة، فأيضاً عندنا أصحاب الجنة وأصحاب النار، صاروا أصحابها لأنَّ المشوار طويل، أي جالسين لوقتٍ طويل، فرُبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ قال: (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أي ماكنون.

(كَفَرُوا وَكَذَّبُوا) الكُفْرُ قُلْنَا سابقاً هو التغطية، هناك كَفَرُ الجوال هو الغطاء، فالكُفْرُ هو الغطاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101)

(سورة الكهف)

الجنة التي خرج منها آدم ليست جنة الخلد:

فالكُفْرُ أعموا أعينهم عن الحقيقة، غَطُّوا أعينهم عن رؤية الحقِّ، والتكذيب هو الجحود والإنكار، فهو غَطَّى عينه عن الحقيقة وإن رآها أنكرها، قال: (كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أي ماكنون فيها لا يخرجون منها، والخلود في النار هو لكل كافرٍ ليس في قلبه ذرة من إيمانٍ لا يخرج منها، والخلود في الجنة للمؤمنين لكل من دخلها، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ (48)

(سورة الحجر)

فقد يدخل إلى النار مؤمنٌ عاصي مُرتكبٍ للكبائر، استحق النار ولكن يخرج منها، فإذا دخل الجنة (وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ).

لذلك أكثر أهل العلم وأنا أتفق مع هذا المبدأ، أنَّ هذه الجنة التي خرج منها آدم عليه السلام ليست جنة الخلد، لكن هي الجنة بالمعنى اللغوي، البستان الذي فيه ما لذَّ وطاب، وفيه كل شيء، فكانها جنة مُصَغَّرة من أجل هذا الامتحان، فإذا أردتم أن تدخلوا الجنة الحقيقية التي أُعدَّت للمُتقين، والتي لا تخرجون منها أبداً، وليس فيها من يوسوس لكم، وليس فيها من يُخرجكم منها، فاعملوا لها عملها والتزموا شرع الله عزَّ وجل، والله أعلم (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

معنى "إسرائيل":

ثم يُخاطب المولى جَلَّ جَلَالُهُ بني إسرائيل، أي أبناء يعقوب، إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، والعبرانية إسرا هو عبدٌ أو هو صفوة، وثيل هو الإله في لغتهم، فإسرائيل التي تسمَّى بها هذا الكيان المُجرم هي اسم يعقوب عليه السلام، فإسرائيل هو نبينا يعقوب، لكن هُم نسبوه زوراً إلى كيانهم المزعوم الظالم، المُتجبر، الطاغى، فأصبحنا إذا قيل الاسم ننفر منه، إسرائيل نبيٌّ من أنبياء الله، هو عبد الله أو صفوة الله، إسرائيل، فالله تعالى هُنا يُخاطب ذُرِيته:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا بَعْدَئِذٍ الْوَعْدَ الَّذِي لَكُمْ وَوَفُّوا عَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَارِهُونَ (40)

(سورة البقرة)

كل من هو من ذريته، يخاطبهم في عهد النبوة: (اذْكُرُوا بَعْدَئِذٍ الْوَعْدَ الَّذِي لَكُمْ) والإنسان عندما يذكر النعمة بتذكر المُنعم، والمؤمن لا يبقى مع النعمة، بينما الكافر يبقى مع النعمة، الكافر يتمتع بالنعمة، لكن المؤمن تنقله النعمة إلى المُنعم جَلَّ جَلَالُهُ، الكافر يشرب الماء والمؤمن يشرب الماء، والله تعالى لَمَّا قال إبراهيم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ

المؤمن لا يبقى مع النعمة بينما الكافر يبقى مع النعمة:

قال الله له: **(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ)** أي الكل **(فَأَمَّا قَلِيلًا)** فالكل ينتفع بالنعمة، لكن من ذا الذي تنقله النعمة إلى المنعم؟ هذا هو المؤمن، الذي ينتقل من النعمة إلى المنعم، النعمة فانية والمنعم باقٍ جلَّ جلاله، فالمنعم إذا ذكر الإنسان نعمة الله فشكر الله عليها، صار الحمد أفضل من النعمة التي هو فيها، لأن النعمة فانية، أنت شربت الماء انتهى، الماء كم سيبقى في الجسم؟ ساعة، ساعتين، ثلاث؟ ثم ستمتلي المئانة ثم سيخرج، هذه حقيقة، والطعام كذلك، واللباس كذلك، كل نعمة ستأتي عليك ستفنى، لكن إذا قلت: الحمد لله، ذكرت نعمة الله فيها، وجدت الحمد يوم القيامة كجبل أحد، فأيهما أفضل النعمة أم الشكر؟ الشكر على النعمة، لذلك:

{ ما أُنعم الله على عبدٍ نعمةً، فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ }

(أخرجه ابن ماجه والطبراني والبيهقي)

الحمد أفضل من النعمة لأنه يبقى، فالمؤمن يذكر نعمة الله، وهؤلاء أنعم الله عليهم بنعم عديدة سيُعَذَّبُها في الصفحة التالية:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَثْنَاءَكَ وَتَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ فِي ذَلِكَ يَوْمٍ بَلَءٌ مِّن رَّبِّكَ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكَ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْطُرُونَ (50) وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَزْوَاجَهُ لَبِئْسَ لَبْلَةٌ لِّمَن اتَّخَذَتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَقَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52)

(سورة البقرة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْطُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56)

(سورة البقرة)

سيُعَذَّبُ الله نعماءه عليهم، نعم كثيرة لكنهم لا يذكرون نعمة الله عليهم، يتناسونها فقال: **(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ)** بالمناسبة ربُّنا عزَّ وجل يتلطف بهم، أي اذكروا النعمة حتى تذكروا المنعم، لكن نحن قال الله تعالى لنا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41)

(سورة الأحزاب)

على الإنسان أن يذكر نعمة الله عليه حتى توصله إلى المُنعم:

فوراً إلى المُنعم، أكثر من ذكر الله، نحن المسلمين يجب أن نكون قد تجاوزنا النعمة إلى المُنعم، فالأوامر في القرآن لنا أن نذكر الله، أن نذكر المُنعم جلّ جلاله، لكن هنا يتلطف بهم، تذكروا النعمة لعلها توصلكم إلى المُنعم، فلما يذكر الإنسان نعمة الله عليه، فإنه يحمد الله عليها في القلب اعترافاً، وباللسان شكراً، ويعمل الجوارح عملاً وامتناناً، بثلاثة أمور يذكر النعمة.

القلب يعترف بأن النعمة من الله، واللسان ينطق الحمد لله، والجوارح تعمل في مرضاة الله، فقد أنعم الله عليّ بنعمة البصر فلا أنظر في الحرام، وأنعم عليّ بنعمة الأذن فلا أسمع بها حراماً، وأنعم عليّ بنعمة الرجل فلا أمشي بها إلى مكان فيه معصية الله، وإنما أمشي بها إلى بيوت الله، إلى الإصلاح بين الناس، وأنعم الله عليّ بالمال فلا أنفقه إلا بما يرضي الله عزّ وجل، وأنعم عليّ بالزوجة فلا أعاملها إلا بما يرضي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، هذا أعظم شكر، قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَايِلَ وَجِقَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ (13)

(سورة سبأ)

اجعل جوارحك تشكر الله بالعمل.

إذا بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناءً، والجوارح عملاً هذا ذكر النعمة (ادْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ يَعْهَدِكُمْ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152)

(سورة البقرة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7)

(سورة محمد)

الجزاء من جنس العمل:

الجزاء من جنس العمل، ربنا جلّ جلاله يكافئك من جنس عملك، فإن كنت وفياً معه كان وفياً معك، أوفيت بعهده أوفى بعهدك، هذا من باب المُشاكلة حتى تطمئن، ربنا غنيّ عنا، نحن الذين نحتاج أن نوفي بعهدنا، العبد لا يُفاضي سيّده السيّد يُفاضي عبده، لكن الله تعالى يقول لك: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ يَعْهَدِكُمْ) هذه مجزومة، لا نقول: أوفى، (أوفٍ يَعْهَدِكُمْ) لأنها جواب الشرط، لأنّ الله تعالى يقول: إن توفوا بعهدي أوفى بعهدكم، هذا سُمّي جواب الطلب (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ يَعْهَدِكُمْ).

ما عهد الله تعالى عليهم؟ عهد الله عليهم أن يؤمنوا بنبي الله صلى الله عليه وسلم، إذا جاءكم هذا النبي العظيم أن تؤمنوا به، هذا العهد الذي أُجِد على بني إسرائيل. لكن:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْهِخُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89)

(سورة البقرة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَعْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا
جَهُولًا (72)

(سورة الأحزاب)

فنحن عهدنا مع الله أن نركي أنفسنا وأن نحملها على طاعته، وعهده معنا أن يكافئنا ويُجازينا على ذلك جنة عرضها السماوات والأرض، ربُّنا يُكَلِّمُكُم بِمَنْطِقٍ تَجَارِي، أنا لي عهدٌ عندك، لك عهدٌ عندي ولي عهدٌ عندك، فأنت أوفي بعهدي حتى أوفي بعهدك، والله لا يوجد أعظم من هذا الكلام، لَمَّا أَرَدَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ مَعَاذًا قَالَ:

{ كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا }
(أخرجه البخاري ومسلم)

هو أنشأ لك حقاً عليه، لك حقٌ عليّ يا عبدي إن أطعنتي ألا أعذبك، أن أنعمك بجنةٍ فيها:

{ قَالَ اللَّهُ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ }
(أخرجه البخاري ومسلم)

انظروا إلى دوائر الجنة، قال: **(ما لا عين رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر)**.
(ما لا عين رأت) تقول لي: ماذا رأت عينك من بلاد الدنيا؟ أقول لك: أعددت لك أربع أو خمس دولٍ ثم أقف، أمريكا لم أذهب إليها، القطب الجنوبي لم أره، كندا لم أذهب إليها.
ماذا سمعت؟ أقول لك: سمعنا عن كندا وعن أمريكا وعن البرازيل وعن الصين لكن ما زرناهم.
ماذا خطر على بالك؟ أقول لك: خطر على بالي تفاحةٌ بحجم البطيخة خمسة عشر كيلو، الخواطر ليس لها حدود، فقال: **(أعددت لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ)**.

لا تخاف إلا من الله:

(أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِتَابِي فَازَهُنَّ) لو قال: فارهبوني لاحتملت أن ترهب غيره، لكن لَمَّا قَالَ: **(وَإِتَابِي فَازَهُنَّ)** صارت وإتاي وحدي فارهبون، لا تخاف إلا من الله، مثل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُكَ وَإِنَّا كُنَّا نَسْتَعِينُكَ (5)

(سورة الفاتحة)

أي لا نعبد إلا الله، فلَمَّا قَدَّمَ المفعول به على الفعل والفاعل، صار عندنا حصراً وقصرٌ تُسمَّيه هذا في اللغة **(وَإِتَابِي فَازَهُنَّ)** أي لا تخافوا إلا مَنِي.

ما الفرق بين الرهب والترهب والخوف؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَاسَتْجَنَّا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90)

(سورة الأنبياء)

وهنا (قَازِهَبُونِ) الرّهب كل رهب خوف، وليس كل خوف رهباً، فالخوف أحياناً تخاف من عقرب، لكن هل هناك هيبه في صدرك له وتعظيم وإجلال؟ لا، خوف فقط، أمّا الرّهب فيه مع الخوف تعظيم وإجلال، قال: (رَغَبًا وَرَهَبًا)، (وَأَيَّ قَازِهَبُونِ) فالرّهب فيه تعظيم وإجلال مع الخوف، أي معنى زائد عن الخوف، معنى إيجابي، نحن نخاف الله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّمَا دُلَّكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ۖ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ (175)

(سورة آل عمران)

بمعنى أننا نخاف عذابه، وترهبه بمعنى أننا نُعظمه ونُجلّه، أحياناً نقول: والله أنا عندي رهبة عندما أرى أبي، ليس خوفاً بمعنى الخوف لكن هو له مكانة عظيمة عندي (وَأَيَّ قَازِهَبُونِ).

قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا يَأْتِيَنِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41)

(سورة البقرة)

(مُصَدِّقًا) أي موافقاً، يُصَدِّقُهُ أي يوافقهُ (لِّمَا مَعَكُمْ) أي من صحيح التوراة، لأنه جاء في التوراة أنه سيأتي هذا النبي في آخر الزمان.

معنى (وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ):

(وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ) أي أول فريق كافر به، بهذا التقدير، أي لا تكونوا أول مجموعة تكفر به، هل تكون الثانية إذاً؟ لا، بالتأكيد ليس هذا هو المقصود، لكن المقصود (وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ) بمعنى أنّ الذي يكفر أولاً سيحمل إثم من يكفر بعده، فلا تحمّلوا أنفسكم أوزاراً، لأنه أنتم الآن بعهد النبي صلى الله عليه وسلم، فإن آمنتم أمّنت دّريتكم من بعدكم، أمّا إذا كفرتم سيكفر الناس من بعدكم، فستحملون إثمهم وإثمكم، لذلك هذا فيه معنى، لأن ربنا عز وجل بالقرآن الكريم يقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَا تَسْبِرْكَ لَهُ ۖ وَيَذَلِّكَ أَمْرٌ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (163)

(سورة الأنعام)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرَايَ وَلَكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ سُجَّدًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنِّىَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَمْرٌ لِّأَنَّ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12)

(سورة الزمر)

المؤمن يُسابق إلى أن يكون الأول في الخير ويتباعد عن أن يكون الأول في الشر:

هناك أولية، وهناك: (وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ) فالمؤمن دائماً يُسابق إلى أن يكون الأول في الخير، ويتباعد عن أن يكون الأول في الشر، فإذا كان أولاً في الخير:

{ مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَعَمِلَ بِهَا، كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَمِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْئاً وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَمِلَ بِهَا، كَانَ

عليه وزرُّها وَوزُرُّ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ }

(أخرجه ابن ماجه ومسلم والترمذي)

إلى يوم القيامة، لكن إن كان أولاً في الشر: (كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوزُرُّ مَنْ عَمِلَ بِهَا) إلى يوم القيامة، فقال: (وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ) لأنكم ستحملون آثام من يأتي بعدكم، فترثوها وافرؤوا وأمنوا.

(وَلَا تَسْتَوُوا بِآيَاتِي تَمَتًّا قَلِيلًا) هذه استعارة، الشراء والبيع في اللغة هنا تُسمِّيها استعارة، بمعنى أنك لا تأخذ مناصباً وأموالاً في الدنيا، مناصب زائلة من أجل تكذيبك بنبي الله صلى الله عليه وسلم (وَلَا تَسْتَوُوا بِآيَاتِي تَمَتًّا قَلِيلًا) فهم كانوا يعرفون أنه سيأتي هذا النبي الكريم، ولكن كانوا يخفون ذلك لمصالحهم، لشهواتهم، لتبعية الناس لهم.

(وَلَا تَسْتَوُوا بِآيَاتِي تَمَتًّا قَلِيلًا وَإِنِّي قَائِمُونَ) وأيضاً هنا للحصر والقصر، أي لا تتقوا، أي لا تأتمروا ولا تجتنبوا إلا ما أمرت وتهيب عنه وحدي، جلَّ جلاله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42)

(سورة البقرة)

خلط الحق بالباطل فعل بني إسرائيل:

لَيْسَ يَلْبِسُ غَيْرَ لَيْسَ، لَيْسَ الثَّيَابِ، أَمَّا لَيْسَ يَلْبِسُ بمعنى خلط شيئين مع بعض، بهذا المعنى.

(وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ) بمعنى لا تخلطوا الحق بالباطل.

(وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ) كل أهل الضلال في الأرض، من أجل إغواء الناس يتبعون أحد هذين المسارين على مدار التاريخ، إذا استطاع أن يخفي الحقيقة ويكتمها قَعْل، إذا لم يستطع لَأَنَّ الحقيقة ظاهرة ناصعة يخلطها بباطله، فتاوى باطلة، تأويلات، هذا يُسمُّونه بالحديث تفجير الدين من الداخل.

اليوم أعداء الدين أيقنوا أنَّ إلغاء الدين غير ممكن، كتم الحق لم يُعد ممكنًا، وسائل إعلام، المساجد موجودة، المسلمون يزدادون تمسكاً بدينهم، يعني إلغاء الدين غير ممكن فماذا نفعل؟ أتوا بشيوخ يلبسون ثياب العلم بطريقة أو بأخرى، أو يتكلمون بالقرآن والشريعة، تارة يدعو التجديد في الدين، تارة يدعو الفهم المعاصر، تارة يدعو قراءاتٍ مُعاصرة في القرآن الكريم، دُعوات باطلة يخلطون فيها الحق بالباطل.

يتكلم كلاماً فتقول: والله كلامه جميل! لكن الشخص غير مُختص، فيُدس له الشَّم بالعسل فيخلط الحق بالباطل، فأنت تصليكَ صورة فتقول: والله كلامه جميل، يتكلم كلاماً طيباً، يُريد الأخوة والمحبة، لكن ألم تسمع ماذا قال أثناء الكلام؟ ألم تنتبه؟ ألم تفتن لخلطه بين الحق والباطل؟ فقال: (وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ) هذا فعل بني إسرائيل، لكن الله يُعلمنا بهم كما قلنا عندما بدأنا سورة البقرة، قلنا سورة البقرة تعليم لأمة الإسلام والوسائل التوضيحية هم بنو إسرائيل، الوسيلة التعليمية انظروا ماذا فعلوا ولا تكونوا مثلهم، "الحكي لك يا جارة واسمعي يا كثة".

(وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ) ما استطاعوا كتم الحق، فإذا عجزوا عن كتمه خلطوا الحق بالباطل، فصرت أمام باطل، الحق يا إخوانا الكرام لا يحتول باطلاً، أنت أحضر قصعة لبنٍ وضع معها نقطة واحدة من البنزين، قصعة اللبن سُلِّقى ولن تستطيع أن تشربها، ممكن أن تضع لها ماءً حقاً آخر، تفسيزُ آخر ممكن، فهم، لكن أن تُضيف لها البنزين سيُفسدها انتهت.

الحَقُّ لَا يَقْبَلُ بَاطِلًا:

فالحَقُّ لَا يَقْبَلُ بَاطِلًا، إِذَا نَزَلَ بِهِ بَاطِلٌ صَارَ بَاطِلًا، وَصَلَ إِلَى النَّاسِ بَاطِلًا، لِأَنَّ الْفِكْرَةَ إِذَا أَنْتَ أَخَذَهَا حَقًّا أَوْ أَنْ تَأْخُذَهَا بَاطِلًا، فَالْخِلَاطُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ يَجْعَلُ هَذَا الْمُتَكَلِّمَ يَتَكَلَّمُ بِبَاطِلٍ، كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُ لَكَ: نَحْنُ نَسْمَعُ مِنْهُ الْأَشْيَاءَ الْجَيِّدَةَ، لَا، لَا تَسْمَعُ مِنْهُ الْأَشْيَاءَ الْجَيِّدَةَ لِأَنَّ هَذَا مَتَى يَدُسُّ الشَّمَّ بِالْعَسَلِ لَا نَعْرِفُ، إِذَا كُنْتَ مُخْتَصِّصًا نَقُولُ: وَاللَّهِ هُنَاكَ فِكْرَةٌ مَقْبُولَةٌ قَالَهَا، لَكِنْ إِذَا كُنْتَ غَيْرَ مُخْتَصِّصٍ لَا نَعْرِفُ مَتَى يَدْخُلُ إِلَى الْغُمُقِ وَيَعْتَبَثُ بِدِينِكَ، الشَّبَابُ وَالنِّسَاءُ الْيَوْمَ بَعْضُ الدَّعَوَاتِ النَّسَوِيَّةِ وَغَيْرَهَا، فَيَجِبُ الْإِنْتِبَاهُ إِلَى هَذَا الْفَنِّ مِنْ فَنُونِ إِبْلِيسَ، وَهُوَ خِلَاطُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ.

(وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) تعلمون أن هذا النبي المرسل سيأتي في آخر الزمان، ثم تلبسون على الناس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)

(سورة البقرة)

إقامة الصلاة لا تعني أن يؤدبها الإنسان، ولكن تعني كما قلنا سابقاً، أن يؤدبها على النحو الذي يريده الله منها، وهي أن تنتهي عن الفحشاء والمُنكَر.

معنى (وَآتُوا الزَّكَاةَ):

(وَآتُوا الزَّكَاةَ) والزكاة من زكى إذا نما، ومن التزكية بمعنى الطهارة، والزكاة تحمل المعنيين معاً، تحمل النماء لأن الله يبارك في مالك عندما تدفع زكاته، المال إذا دفعت زكاته ينمو بطريقتين: طريقته مُستنبطه من حركة الحياة، لأنَّ الفقير إذا أخذ الزكاة سيعود ليشترى حاجاته من الغني، فستدور دورة المال فينتفع بها الجميع.

وينمو بطريقة ثانية علمها عند ربِّي لكن ينمو، يقول لك: دفعت ليرةً وأتاني عشرة لا أعرف كيف لكن الله رزقني، فينمو المال ويظهر، أنت معك مليون هناك خمسة وعشرون ألفاً ليست لك، فالأمال صار غير طاهر حتى تُخْرِجَ منه الخمسة وعشرون ألفاً، فَصِيحُ التَّسْعِمَاتِ وَخَمْسُ وَسَبْعُونَ طَاهِرَةً، أَمَا إِذَا أَبْقَيْتَ الْخَمْسَةَ وَعَشْرِينَ، فَأَنْتَ لَمْ تُطَهِّرْ مَالَكَ وَلَمْ تُطَهِّرْ نَفْسَكَ (وَآتُوا الزَّكَاةَ).

(وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) الركوع هو جزء من الصلاة وعيَّر بالجزء عن الكل، وقيل إنما عيِّر هنا بذلك لأنَّ صلاة اليهود لا ركوع فيها، فكانه يُلْزَمُهُمْ أَنْ كُونُوا مَعَ النَّبِيِّ، مَعَ الصَّاحِبَةِ الْكَرَامِ وَارْكَعُوا مَعَهُمْ، آدُوا الصَّلَاةَ الَّتِي افترضها الله عليهم.

مُعَاتِبَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَجَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَنْ بَعْدَهُمَ الَّذِينَ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ:

ثم يُعَاتِبُ اللَّهُ تَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَيُعَاتِبُنَا مَنْ بَعْدَهُمْ لَمَنْ كَانَ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44)

(سورة البقرة)

وَالْبِرُّ هُوَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَهُنَا يَنْصَرِفُ إِلَى مَعْنَى مُخَصَّصٍ دُونَ أَنْ نَفْقِدَ الْمَعْنَى الْعَامَ، فَهُمْ كَانُوا أَحْيَانًا يَأْمُرُونَ بَعْضَ أَتْبَاعِهِمْ أَوْ بَعْضُ مَنْ يَأْتِيهِمْ، بِأَنَّ هَذَا النَّبِيَّ حَقٌّ اتَّبِعُوهُ، لَكِنْ هُوَ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ لِلنَّاسِ سَيَاتِي نَبِيٌّ وَاتَّبِعُوهُ، ثُمَّ أَنْتَ لَا تُتَّبِعُهُ!

(وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ) التَّوْرَةَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ، وَفِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) عَقَالُ الدَّابَّةِ هُوَ الرِّبَاطُ الَّذِي تُرْتَبَطُ بِهِ الدَّابَّةُ، فَالْعَقَالُ كَمَا أَنَّهُ يَمْتَنِعُ الدَّابَّةُ مِنَ الْحَرَكَةِ يَعْقِلُهَا، فَوَيْمَنَعَ الْإِنْسَانُ مِنَ الشَّرِّ وَالْمَهَالِكِ، وَيَمْنَعُهُ إِذَا تَفَكَّرَ بِعَقْلِهِ، أَنْ يَقُولَ شَيْئًا ثُمَّ هُوَ لَا يَفْعَلُهُ.

أَنْتَ إِذَا قُلْتَ لِأَحَدِهِمْ: ضَرُورِي جَدًّا أَنْ تَأْخُذَ دَوَاءَ السُّكَّرِ، وَأَنْتَ مَعَكَ مَرَضُ السُّكَّرِ وَلَمْ تَأْخُذْ الدَّوَاءَ، هَلْ هَذَا مُمْكِنٌ بِالْعَقْلِ؟!

قُلْتَ لَهُ: ضَرُورِي جَدًّا أَنْ تَتَزَكَّى التَّدَخِينِ لِأَنَّ التَّدَخِينَ مُضِرٌّ بِصِحَّتِكَ يَعْمَلُ كَذَا وَكَذَا، هُنَاكَ أَطْبَاءٌ قَلِيلَةٌ يَتَكَلَّمُوا مَعَ الْمَرِيضِ يَقُولُ لَهُ: التَّدَخِينُ مُضِرٌّ جَدًّا، ثُمَّ يَقُولُوا لَكَ: هَذَا الطَّبِيبُ مُدْخِنٌ مِنْذُ عَشْرِينَ سَنَةً (وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ).

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) الْعَقْلُ يَقْتَضِي أَنَّكَ إِذَا أَمَرْتَ غَيْرَكَ بِشَيْءٍ فِيهِ خَيْرٌ، أَنْ تَكُونَ أَنْتَ أَوَّلُ مَنْ يُبَادِرُ إِلَيْهِ، وَإِذَا تَهَيَّئْتَ عَنْ شَيْءٍ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ أَوَّلُ مَنْ يُبَادِرُ إِلَى تَرْكِهِ، فَقَالَ: (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) يُعَاتِبُهُمْ، أَيْنَ عَقْلُكُمْ؟ أَيْنَ الْعَقْلُ الَّذِي يَرْبِطُكُمْ وَيَمْنَعُكُمْ مِنْ أَنْ تَوَرَدُوا أَنْفُسَكُمْ الْمَهَالِكُ؟

في رحلتك إلى الله استعين بشيئين: بالصبر والصلاة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45)

في رحلتكم إلى الله استعين بشيئين: بالصبر والصلاة، والصبر أعظم من الصلاة، الصلاة جزء من الصبر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ تَنْحُنْ تَرْزُقُكَ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (132)

(سورة طه)

الصلاة نوع من أنواع الصبر:

الإنسان عندما يقف في الصلاة عشر دقائق، هو حبس نفسه عن كل الدنيا، لا يستطيع أن يتحرك، لا يستطيع أن يأكل، لا يستطيع إذا ناداه أحدهم أن يقول له: حاضر، لا يستطيع أن يفتح الجوال، إذا الصلاة صبر، فقال: **(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ)** هذه عامة ثم عطف الخاص على العام، قال: **(وَالصَّلَاةِ)** لأن الصلاة نوع من أنواع الصبر، قال بعض المفسرين الصبر هنا هو الصيام، أي استعينوا بالصيام والصلاة، لأنه أيضاً الصيام صبر، والزكاة صبر، والحج صبر، والدين كله صبر، لأنه كله إما أن تصبر على طاعته، أو أن تصبر عن معصيته، أو أن تصبر على قضاء الله وقدره، فالدين صبر.

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۖ وَإِنَّهَا) ما هي؟ الصلاة (لَكَبِيرَةٌ) صعبة شاقّة (إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) الخاشع لا يحسّ بالصلاة.

كان أحد السلف يقول: "تعذبت بالصلاة عشرين سنة ثم تنعمت بها عشرين سنة، والله إنني لأدخل في الصلاة فأحيل همّ خروجي منها" يدخل بالصلاة فيكون همّه أنها تنتهي - أعاننا الله على الخروج - وهو مسرور لأنه خاشع، ساكن، الخشوع في الأصل هو السكون.

على الإنسان أن يحاول جهده الخشوع في الصلاة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لُمُحْيِي الْمَوْتِ ۚ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)

(سورة فصلت)

تكون ساكنة فتتحرك عند نزول الماء، فالخشوع هو السكون، والسكون هو سكون القلب، وبغله سكون الجوارح بقدر الإمكان، لكن هو في الأصل سكون القلب، أن يسكن القلب عن التعلق بغير ما هو فيه.

{ قال سعد بن معاذ: ثلاث أنا فيهنّ رجلٌ وفيما سوى ذلك فأنا واحدٌ من الناس، ما سمعتُ من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حديثاً قط إلا علمتُ أنه حقٌّ من الله، ولا كنتُ في صلاةٍ قط فشغلتُ نفسي بغيرها حتى أقصيتها، ولا كنتُ في جنازةٍ قط فحدثتُ نفسي بغير ما يقولُ أو يقالُ - الجنازة بماذا تُحدثُ؟ تقول لك: أنتم السابِقون ونحن اللاحِقون - حتى أنصرفَ عنها، فقال: إن هذه الخصالُ ما كنتُ أحسبُها إلا في نبيٍّ وإن سعدا لمأموراً {
(أخرجه ابن عدي في الكامل في الضعفاء واللفظ له، والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان)

قال: أنا هنا رجلٌ بطل، بطولته عظيمة والله أن يدخل الإنسان في صلاته فلا يُحدث نفسه بشيء حتى يفرغ منها، خشوعٌ كامل، لذلك ربنا عز وجل قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَوْلُ الْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5)

(سورة الماعون)

قال أهل العلم: والله لو قال في صلاتهم ساهون لهلكنا جميعاً، إنما قال: عنها، أي لا يؤدونها في أوقاتها، أمّا لو قال: فيها مُصَيِّبة. العوام يقولون لك: إذا أضعت شيئاً فم فصل، ليس من أجل أن تدعو الله فتجد ما أضعته، لا، لأنك إذا صليت ستتذكّر أين وضعتها، فلم تُغد مشغولاً بشيء فيخشع القلب بتذكّر أين فقدتها، مُصَيِّبة نسأل الله أن يعفو عنا، كلنا نقع بهذا الأمر، لكن على الإنسان أن يحاول جهده أنه إذا دخل في الصلاة خشوع تام، أن يسكن قلبه فيها، لذلك النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول:

{ لا صلاة بخصرة طعام، ولا وهو يدافعه الأختان }

(أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود)

الطعام أمام الإنسان وهو يريد أن يُصلي وعقله بالطعام، شهوة الطعام.

(ولا وهو يدافعه الأختان) أي مشغول يريد الدخول إلى الحمام، سواء البول أو الغائط - أعزكم الله - فهو في كلا الحالتين الأختان يدافعهم فلا يستطيع أن يُصلي، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يُصلي وأمامه قِرام أي جرام للسيدة عائشة عليه بعض التصاوير فقال:

{ أزيل عني قِرامك هذا فإنه لا تزال تصاويره تُقرض لي في صلاتي }

(أخرجه البخاري)

على الإنسان أن يختار المكان المناسب لصلاته بخشوع:

أي يشغلني عن صلاتي، اليوم أحدهم يُصلي والشاشة مفتوحة، أو يسمع ما بقي من المُسلسل وهو يُصلي، ما هذه الصلاة؟! لن يخشع القلب، لذلك الإنسان دائماً في الصلاة يختار مكاناً مناسباً.

أنا أقول: إذا كان البيت واسعاً - نسأل الله أن يوسّع على الجميع - أن تكون الصلاة بمكان آخر غير غرفة الجلوس، طبعاً إذا كان هناك أولاً في البيت، أو شاشة مفتوحة، أن يذهب إلى غرفة خاصة، وأن يصنع دائماً هذه السجادة بمكان حيث لا يوجد مُلهيات، لا يوجد شاشة مفتوحة، لا يوجد أولاً يلعبون، فأصلي لوحدي في غرفة الصيوف أو في غرفة النوم، أي أن يُصلي في مكان يستدعي فيه الخشوع، وأن يقرأ ما استطاع من غير السور القصيرة التي حفظها، فأصبح يُرذّدها من غير أن يشغّر بمعانيها، كلها سور عظيمة، لكن أن يقرأ دائماً في الصلاة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1)

(سورة الإخلاص)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1)

(سورة الفلق)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1)

(سورة المسد)

التجديد بالقراءة في الصلاة يجعل الإنسان أكثر تدبُّراً للآيات المقرؤة:

بعد حين يألُفها، أمّا مثلاً عندما يقرأ من سورة البقرة، يقرأ من الأنعام، يقرأ من الكهف، ولو أنه فتح المصحف أمامه ووضعه بحيث يراه إذا كان لا يحفظ، فهذا جائز عند أهل العلم في النفل، وعند كثير من أهل العلم في الفرض، وأنا لا أجد دليلاً يمتنع منه لا في فرض ولا في نفل، أي في الفرض أو النفل، طبعاً الفرض الأولى في المسجد، لكن لو صلى في بيته الفرض ليسبي أو آخر، المغرب أو الفجر أو العشاء، فيقرأ من المصحف صفحةً صفحةً، فهذا التجديد في القراءة يجعله أكثر تدبُّراً للآيات المقرؤة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى بأصحابه قال:

{ صَلِّ صَلَاةً مُودِّعَةً كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ بَرَكَ، وَابْأَسْ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ تَعِيشُ غَنِيًّا، وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذِرُ مِنْهُ }
(أخرجه الطبراني والبيهقي وابن عساکر)

وقال:

{ اذْكُرِ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِكَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحِزُّهُ أَنْ يُحَسِّنَ صَلَاتَهُ، وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنْ يُصَلِّيَ
صَلَاةً غَيْرَهَا، وَإِيَّاكَ وَكُلُّ أَمْرٍ يُعْتَذَرُ مِنْهُ }

(أخرجه الديلمي والبيهقي)

أن يتخيّل الإنسان أنّ هذه آخر صلاة.

صَلِّ صَلَاةً مُودِّعَةً:

بالله عليكم لو أنّ أيّ واحدٍ منّا قيل له وأنا كذلك، أنّ الموت الآن بعد العشاء وملك الموت على الطريق، كيف يُصليّ العشاء؟ فلو أنّ كل صلاة تُصليها وكأنها آخر واحدة، فيخشع، ينصرف عن الدنيا، يتأمّل في الآيات، يقرأ بهدوء وخشوع:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (3) مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ (4)

(سورة الفاتحة)

يتوجّه من قلبه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا نَعْبُدُكَ وَإِنَّا نَسْتَغْفِرُكَ (5)

(سورة الفاتحة)

كيف يكون ركوعه وهو يُسَبِّحُ العظيم؟ كيف يكون سجوده وهو يُسَبِّحُ الأعلى؟ تختلف كل صلاته، فقال: **(اذكر الموت في صلاتك، فإنَّ الرجل إذا ذكر الموت في صلاته لحرى أن يُحسن صلاته، (صل صلاة مُودِعٍ) أي هذه آخر صلاة.**

هذه كلها أسباب سريعة تُعين الإنسان على الخشوع في صلاته، لأنَّ الله تعالى يقول: **(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ) لكبيرة صعبة، الصلاة شاقَّة، وقوفٌ ووضوءٌ وصلاة أربع ركع:**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (46)

(سورة البقرة)

والظن هنا بمعنى اليقين، الظن في الأصل كما قلنا وضع لما يكون فوق الشك، أي سبعين أو ثمانين بالمئة، لكن يُستخدَم في اللغة لليقين، وهنا المعنى اليقيني: **(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)** هذا يصلي صلاة مودِعٍ **(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)** هذا والله تعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين.

الدعاء:

اللهم اغفر لنا وارحمنا وعافنا واعفُ عَنَّا وإلى غيرك لا تكلنا، ومن شرور أنفسنا نَجِّنَا وسَلِّمْنَا، وعلى الإيمان الكامل والكتاب والسنة تَوَقَّنَا، نلُفَّاكَ وَأَنْتَ رَاضٍ عَنَّا. اللهم اجعل هذا الجمع جمعاً مباركاً مرحوماً، واجعل التفريق من بعده معصوماً، ولا تجعل فينا ولا مَتَا ولا معنا شقياً ولا محروماً، والحمد لله رب العالمين.